فلسفة الاستعمار

بقلم

الدكتور ناصر الدين الأسد

(١)

بدأ الاستعمار الأوربي الحديث منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي ومطلع القرن السادس عشر — عصر الكشوف الجغرافية ، حين امتلأ خيال أوربا بسحر الشرق وصارت تداعب نفوسهم رؤى لياليه المفعمة بالبذخ ونعمه التي تفيض بالترف . فشد إليه الرحالة المغامرون أشرعة مراكبهم ليروا بأعينهم ما امتلأت به نفوسهم من قصص الذين سبقوهم إلى ارتياده ، وطمحت إليه أهواء التجار لينقلوا إلى بلادهم حريره وجواهره وعطوره وبخوره وبهاره وتوابله وسائر أدوات الزينة ووسائل الترف ، واتجهت إليه أنظار الأمراء والملوك ليضيفوا إلى أملاكهم بلاداً جديدة تدخل في حوزتهم وتوسّع من رقعة نفوذهم ، وواكب هؤلاء جميعاً رجال الدين من المبشرين لينشروا في هذه البلاد الشاسعة تعاليم السيد المسيح ، وليشيعوا في نفوس ساكنيها الطمأنينة لهؤلاء الوافدين عليهم ، وليكسبوا ولاءهم للدول التي يفدون منها .

وتمثل لهم الشرق بهذه المعانى — أول ما تمثل — فى الهند وما جاورها من بلاد وأحاط بها من جزر وسواحل . فكان همهم الأول أن يكتشفوا طرقاً بحرية جديدة يسلكونها إلى هذا الشرق — ويتجنبون فيها السير فى ديار الإسلام والوطن العربى — الممر الطبيعى بين الشرق والغرب وحلقة الوصل التى تربط بين العالم بقاراته الثلاث . وذلك لأن الوطن العربى الإسلامى كان آنئذ عزيز الجانب منيع الحمى . وقادتهم محاولاتهم هذه إلى أن يكتشفوا بلاداً ظنوها بادئ الأمر الهند أو الجزر القريبة منها ، ثم تبين لهم أنها عالم جديد لم يكونوا قد عرفوه من قبل . ونجحوا فى أن يكتشفوا طريقاً بحرية تطوف حول إفريقية وتمر بطرفها الجنوبى — رأس الرجاء الصالح ، ثم تنتهى بهم إلى طلبتهم . وكان كل ذلك فى السنوات العشر الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادى . وإذ كانت هذه السبل كلها بحرية فقد كان من الطبيعى أن تسبق إلى هذه الكشوف الدول البحرية القوية آنذاك : البرتغال وإسبانيا ، ثم تبعتها إنجلترا وهولاندا ففرنسا .

ثم بدأ عصر الآلة فى أوربا وما سببته من انقلاب صناعى . وبعد أن كانت الصناعة اليدوية لا تكاد تفى بحاجة الناس ، أصبحت الصناعة الآلية تفيض عن احتياجاتهم ، وصار لا بد لهذا الفائض من أن يجد له أسواقاً خارجية . ثم إن هذه الآلة التى تنتج ذلك الفيض من المصنوعات كان لا بد لها من خامات ومواد أولية أكثر مما تنتجه بلادهم لتلبى الطلبات المتزايدة وتتناسب مع وفرة النتاج .

من أجل هذين العاملين معاً : وفرة الإنتاج ، والحاجة إلى الخامات ،

كان لا بدّ للبلاد الأوربية التى تأثرت بالآلة والانقلاب الصناعى من أن تبحث لها عن أسواق خارجية تصرف فيها فائض الإنتاج ، وبلاد جديدة تستمد من مواردها الخامات ، فوجدت بغيتها فى تلك البلاد التى امتد إليها نفوذها ودخلت فى حوزتها منذ عهد الكشوف الجغرافية .

وتبع ذلك أمران كان منطق الحوادث يمليهما ، الأول : تأمين السبل إلى هذه المستعمرات باحتلال السواحل ، والجزر التى تقع فى طريقها . والثانى : تقصير السبيل إليها .

ولذلك كان من الطبيعى أن تتجه أنظار الاستعمار الأوربى إلى الوطن العربى لتحقيق هاتين الغايتين معاً ، ولغاية ثالثة تستتر فى ثنايا الحوادث وقد تخفيها أحياناً ظواهر الأمور ، هى هذا الثأر القديم المتجدد بين هذا الوطن وبين أوربا ، والذى بلغ ذروته فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين .

وتسلم زمام المبادرة دولتان أوربيتان — كان لهما الدور الفعال فى ذلك الثأر القديم — هما فرنسا وإنجلترا . بدأت فرنسا بمصر سنة ١٧٩٨ م بحملة نابليون فأخفقت ، فاتجهت بأنظارها إلى أطراف الوطن العربى البعيدة عن قلبه القريبة من بلادها فاحتلت الجزائر — أول جزء من الوطن العربى يدخل فى حوزة الاستعمار سنة ١٨٣٠ م ، ولكنها لم تنس مصر وقلب الوطن العربى وإن اتبعت لذلك وسائل خفية غير الاعتداء المسلح الظاهر ، وكان أن شقّت قناة السويس بعد نحو ربع قرن من احتلال الجزائر .

كان شق قناة السويس أول كسب حقيقى يناله الاستعمار الأوربى فى وطننا ، فقد حققت لهذا الاستعمار غايتين ، الأولى تقصير السبيل إلى المستعمرات الأوربية فى الشرق ، والثانية فصل الجناح الأيمن للنسر العربى من جناحه الأيسر ، ولذلك كان من الطبيعى أن تحتل فرنسا تونس فى سنة ١٨٨١ ، وأن تحتل بريطانيا مصر فى سنة ١٨٨٢ ، وما كادت تمر السنوات الأولى من القرن التاسع عشر حتى كانت أجزاء الوطن العربى فى شمال إفريقية كلها ترزح تحت وطأة الاستعمار الأوربى باحتلال فرنسا لمراكش سنة ١٩١٢ واحتلال إيطاليا لليبيا فى السنة نفسها .

وما هى إلا سنوات خمس بعد ذلك حتى تم للاستعمار الأوربى بسط نفوذه على الجناح الأيمن من الوطن العربى فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، فوقعت فى قبضته العراق وبلاد الشام . وامتد نفوذه فى أشكال وصور متباينة متفاوتة إلى قلب جزيرة العرب وسواحلها .

ذلك هو تاريخ الاحتلال العسكرى فى بلادنا ، لمسناه لمساً عابراً ، ومررنا به مرا موجزاً هيناً ، ولم نتعرض لأجزائه الدامية ولا لتفصيلاته الملأى بالتنافس بين دول الاستعمار الأوربى حين لا يكون ثمة خطر يهدد بها من غيرها ، فإذا ما دهمها الخطر ، إذا هذه الدول المتنافسة يد واحدة ومعسكر واحد ، غاياته وأهدافه واحدة ، بل إن معركته التى يخوضها — على تعددها — واحدة .

(٢)

ولكنّ وراء هذه القصة القصيرة من الغزو العسكرى التى دامت من بدئها فى سنة ١٨٣٠ حين غزيت الجزائر إلى ختامها فى سنة ١٩١٧ حين تمّ احتلال باقى أجزاء الوطن العربى فى العراق والشام — وراء هذه القصة القصيرة من الغزو العسكرى التى دامت نحو ثلاثة أرباع القرن وطد فيه أقدامه واستكمل أهدافه — قصصاً أخرى من الغزو العلمى مهدت للغزو العسكرى ، وحفت به ، ثم واكبته وسايرته .

ولنبدأ القصة من مطلعها :

منذ قرون قامت فى أوربا طبقة خاصة سميت المستشرقين لدراسة أحوال بلاد الشرق من جميع جوانبها . فعكف بعضهم فى بلادهم يدرسون فى كتبهم وكتبنا : تاريخنا ولغتنا وأدبنا وديننا وفقهنا ومجتمعنا ؛ ووفد بعضهم إلى بلادنا ، وتوسلوا إلى ذلك بشتى الوسائل : فعين قسم منهم فى البدء قناصل لدى الدولة العلية فى العراق وبلاد الشام ومصر وسائر الشمال الإفريقى ، ثم لدى الدولة العلوية فى مصر خاصة . وجاء بعضهم سياحاً يجوسون خلال ديارنا متعرضين لأخطر المهالك مدّعين أن غايتهم المتعة الشخصية والفائدة العلمية المجردة ؛ وجاءت طائفة أخرى تعلن أن هدى الإسلام قد انتشر فى قلوبهم وعقولهم ، فأقاموا بين ظهرانينا ، ووصلوا إلى

ما لم يستطع غيرهم أن يصل إليه ، وجاء آخرون مرتدين مسوح رجال الدين إلى الأديرة والكنائس المبثوثة فى وطننا ، وأنشأوا المدارس والمستشفيات والجمعيات الخيرية الطائفية .

ودرسنا جميع هؤلاء دراسة دقيقة عميقة : عرفوا ماضينا وحاضرنا ؛ رأوا آثارنا ونقوشنا ومخطوطات تراثنا ، ونقلوا إلى بلادهم ما استطاعوا أن ينالوه منها بالسرقة أو الاستهداء أو الشراء ، ووضعوها هناك بين أيدى الذين بقوا فى بلادهم عاكفين على الدراسة .

وعرفوا طبقاتنا الاجتماعية والاقتصادية ، وطوائفنا الدينية ، وفرقنا المذهبية ، ولهجاتنا المحلية ، وتعمقوا الفروق وأوجه الخلاف بين طبقة وطبقة وطائفة وطائفة وفرقة وفرقة ولهجة ولهجة ، وتتبعوا نشأة كل ذلك وتطوره ، وإمكانيات الاستفادة منه وتوسيعه واستغلاله .

ثم درسوا أرضنا : ظهرها وبطنها ، فعرفوا كل مدينة وقرية وسهل وتل وجبل وصحراء ، وعرفوا طرق مواصلاتنا — سواء الحديثة أو التاريخية القديمة منها — وثروتنا الزراعية والحيوانية والمعدنية .

وكتبوا كل ذلك فى تقارير وكتب ، درست بعناية دقيقة ، واستخرجت منها مفاتيح هذا الوطن العربى : مفاتيح السكان ، ومفاتيح المكان . ووضعوها بين أيديهم ، وبدأوا غزوهم .

ولم تستطع بصائرنا المظلمة أن ترى شيئاً ، وإن كانت أبصارنا قد رأت الجندى الغازى وحده ، فظنناه هو أداة الغزو الوحيدة ، فصرفنا همنا إلى محاربته وحده ، وجعلنا كل غايتنا فى إجلائه عن ديارنا . ونسينا أن

الغزو العسكرى ليس غاية قائمة بنفسها ، وإنما هو وسيلة يتوسل بها لتحقيق أهداف الاستعمار الحقيقية ، وحين تتحقق هذه الأهداف يجلو الجندى الغازى ، ويبقى الغزو نفسه .

بدأ الغزو العسكرى إذن بعد أن مهد له وحفّ به وواكبه غزو علمى ، جنوده هؤلاء المستشرقون سواء منهم العلماء الذين أقاموا فى بلادهم ، والقناصل والسياح ورجال الدين الوافدون إلى بلادنا .

(٣)

وبتحقيق الفتح العسكرى بدأ الغزو العلمى مرحلة جديدة ، هدفها تحقيق مصلحة الاستعمار تحقيقاً عميقاً أكيداً مستمراً من غير حاجة إلى بقاء الجندى الغازى نفسه . فقد كانوا يعلمون — من تاريخ الاستعمار الطويل — أن الجندى المحتل استفزاز مباشر له كيان مادى يرى ويسمع ويحس ، فيثير فى النفس الضغينة والحقد ، ويدفع إلى المقاومة والقتال ، وبذلك يصبح وجوده — بعد إتمام الفتح وتوطيد أركانه المادية — مهدداً للمصالح الاستعمارية بدل أن يكون مثبتاً لها ذائداً عنها . فأرادوا أن يبقى الاستعمار نفسه ، وتزول أداته المادية العسكرية . هنا بدأت المرحلة التالية من عمل المستشرقين : وجدوا أن الطريقة المثلى لتحقيق ذلك الهدف هى القضاء على مقومات البلاد المستعمرة ، واقتطاعها من جذورها الأصيلة التى تمدّها بالغذاء الطبيعى من باطن تربتها ، وإفناء أصولها السليمة

التى تضم عناصر الحياة والنماء ، بحيث تبقى جذعاً مبتوراً قائماً على سطح الأرض له فروع وأغصان يحسب نفسه ويحسبه الراؤون شجرة نامية ثابتة الجذور والأصول . ثم يقوم المستشرقون — هؤلاء الصناع الماهرون — بتجربة جديدة من تجارب علمهم : يجتلبون جذوراً جديدة من تربتهم هم ، ويضعونها فى مكان الجذور الأصيلة الأولى ، ويصلونها بجذع الشجرة ، ويمسكون بأيديهم السماد والماء : يغذونها ويروونها كما يريدون وحين يشاؤون تغذية وريًّا صناعيين يخلطون بالغذاء والماء بذور الضعف والهزال ، فتنمو الشجرة نموا غير طبيعى ، لا يلبث هذا النمو نفسه أن يحتاج إلى علاج جديد ، فتحقن الشجرة بحقن صناعية ، وتطعم بأنواع مستوردة من النبت ، وترش بضروب من المساحيق فتكتسب من جديد نموًّا ظاهرياً وتمدداً شكلياً تحسبه حياة متطورة سليمة ، فتنصرف عن إدراك السبب الحقيقى الأصيل لما تعانى .

(٤)

أدرك الاستعمار القوى الكامنة فى وحدة هذه الأمة : وحدة نضالها المشترك ، ووحدة وطنها الشاسع ، ووحدة لغتها الجامعة ، ووحدة دينها ذى الرسالة الحية الخالدة ، ووحدة مجتمعها المتماسك المترابط . فكان أول ما عملوه أن جزّءوا هذا الوطن الواحد وجعلوه أوطاناً متعددة فى كل بقعة منه دولة مستقلة لها حدودها الخاصة . ومع أن بريطانيا كانت تحكم

العراق وفلسطين وشرق الأردن ومصر ، وكانت فرنسا تحكم سورية ولبنان وتونس والجزائر ومراكش فقد اصطنعتا فى كل قطر منها حكومة ، وأقامتا بينها الحواجز فلا يجتاز عربى من جزء من وطنه إلى جزء آخر إلا بجواز خاص للمرور ، وفرضتا على تبادل السلع مكوساً وقيوداً وسكّتا فى كل قطر نقداً خاصاً ، وافتعلتا له اقتصاداً متميزاً وجندتا له جنداً مستقلا . وضربتا على عقول أبنائه ألواناً مختلفة متباينة من التعليم والثقافة ، وجعلتا فى كل قطر حكاماً تحيط بهم شراذم من المنتفعين الذين ارتبطت مصالحهم بهذه التجزئة ليصبحوا حريصين على قيام كيان مستقل فى كل قطر . وكانت الدولتان ترميان من وراء ذلك كله إلى قيام مجتمعات منفصلة متباينة فى كل قطر لتبقى هزيلة كسيحة لا تقوى على النضال .

وبدأ المستشرقون بركام هائل من المؤلفات عن الدين الإسلامى أولا ، فقد علموا أنه ركن أصيل من مقومات هذه الأمة ، فحفروا من حوله ، وبدأوا يهوون عليه بمعاولهم ليقلقلوه ويقتلعوه ، وألبسوا ذلك كله أثواباً علمية تخدع : بحثوا فى القرآن ، وأخذوا منه الآيات المتشابهة والمنسوخة ، ودرسوها ، واستنتجوا منها ، وحكموا على القرآن كله ، ثم استقصوا الأخبار الضعيفة والروايات الشاذة ، وتصيدوا أقوال بعض الأقدمين ، واتخذوا من الحالة المفردة قاعدة ، ومن الخبر الخاص حكماً عاماً . وطرزوا أبحاثهم بدراسات مقارنة : دينية وتاريخية ، ووشوّها بدراسات سيكولوجية وبيولوجية وجنسية عن حياة الرسول وحياة صحابته الأولين ، وأصدروا فى كل ذلك كتباً وأبحاثاً ظاهرها المنهج العلمى السليم والبحث الجامعى

العميق ، فدرّسوها لنا فى جامعاتهم بلغاتهم ، ثم درّسوها لنا فى جامعاتنا مترجمة أو غير مترجمة ، حتى ثقفناها مشدوهين مبهورين بهذا العلم الثمين . وتلقفناها عنهم ، وأذعناها فى دروسنا وكتبنا ومحاضراتنا . ولما اطمأنوا إلى أنهم قد أدّوا الرسالة كاملة ، وحققوا غايتهم غير منقوصة ، وسرت فى نفوسنا وعقولنا سمومهم (العلمية !) حتى صرنا نفكر بعقولهم ، ونبحث بطريقتهم ، ونؤلف على غرارهم — حين اطمأنوا إلى كل ذلك ، اختفوا هم وصدّرونا نحن فى الميدان .

وكان رعيل آخر من هؤلاء المستشرقين قد وجه عنايته فى الوقت نفسه إلى ركن أصيل آخر من مقوماتنا ، إلى جذر عميق من جذور كياننا ووجودنا : هو ثقافتنا العربية : تاريخنا وأدبنا ولغتنا ، فحفروا من حولها أيضاً ، وأهووا عليها بمعاولهم ليقلقلوها ويقتلعوها بالأسلوب العلمى والمنهج الجامعى ذاتيهما . فألفوا فى ذلك كتباً وأبحاثاً ، خلاصتها : أن الأمة العربية كانت أمة جاهلة صحراوية بدائية ، اضطرت تحت وطأة الظروف الاقتصادية والاجتماعية إلى أن تغزو بقوة السيف البلاد المجاورة لها وتستعمرها ، ولم تستطع أن تكون لها حضارة ، وإنما جمعت فتاتاً من الحضارات القديمة وخاصة اليونانية والرومانية والفارسية ، واغتذت عليها واجترتها . وتاريخها الطويل إنما هو سلسلة من الخصومات والخلافات وجباية الأموال .

أما أدبها فلفظى سطحى لا قيمة له ولا طائل من ورائه ، ودراسته عبث ولهو وضياع وقت لا تليق بمن يحترم فكره وثقافته . وأما لغتها فمعقدة

متخلفة غير نامية ، عاجزة عن أن تساير ركب الحضارة والحياة الحديثة ، أما اللهجات المحلية العامية فهى تطور نام طبيعى ، ويجب أن تصبح لغات مكتوبة نعتاض بها عن اللغة الفصحى الواحدة .

ولم يكن هذا الهجوم دائماً سافراً واضحاً ، ولم يكن جميع المستشرقين يذيعونه وينشرونه فى آن واحد ، وإلا لكانت المؤامرة مكشوفة مفضوحة . بل إن بعض المستشرقين قد نصب نفسه لمخاصمة زملائه دفاعاً عن العروبة والإسلام لزيادة القلق وإشاعة الاضطراب ، وإمعاناً فى التمويه والتضليل . فنحن مثلا عند فريق من المستشرقين أمة مادية جافية ، كسيحة الخيال ، محدودة الآفاق ، لأن بيئتنا الطبيعية قد حكمت علينا بذلك ، وقد بلغت بنا المادية منزلة جعلتنا جماعة من التجار ، حتى إن لفظة « العربى » صارت تعنى عندهم إما تاجراً وإما لصاً .

ولكن فريقاً آخر من المستشرقين يستشيط غضباً لهذه الأوصاف ، ويدافع عنا دفاعاً قوياً ، ويرانا أمة روحانية مجنحة الخيال ، لا صلاح لأمورنا إذا جرفتنا تيارات الحضارة المادية الحديثة ، ولا بد لنا لكى نعيد مجدنا من أن نتمسك بروحانياتنا وبخيالنا ، وهى فى رأيهم أصول مقوماتنا وكياننا ، وحين يتحدث المستشرقون هذا الحديث تكاد تلمس فى ألفاظهم الاستغراق فى حبنا ، والاستماتة فى الدفاع عنا ، وهم يقصدون بالروحانيات « الكشف الباطنى والتجرّد عن المادة » ، أما « التفكير العقلى القائم على المشاهدة الحسية والتجربة العملية والنظرة الموضوعية » فهى أمور من خصائص الأمم الغربية التى ضلت الطريق وأفسدتها

الحضارة ! ! بل إنهم ليتظاهرون بالدعوة إلى أنه « لا سبيل إلى إنقاذ الحضارة البشرية من التفسخ والانهيار إلا بانتصار روحانية الشرق » ويؤكد هذا الفريق من المستشرقين حديثهم العاطفي الودي بأعمال تدعم حبهم لنا وتجردهم في خدمتنا ، فتراهم يضيعون كثيراً من الوقت وينفقون كثيراً من المال في نشر بعض تراثنا القديم ، فإذا نظرت فيما ينشرون وجدت أكثره من مؤلفات المتصوفين وخاصة الحنود . وقد جاء مندوب عن إحدى المؤسسات الأجنبية منذ بضع سنوات إلى الجامعة السورية بدمشق ، وتحدث عن أهداف مؤسسته واستعدادها لمساعدة المشروعات الثقافية في جميع البلدان . فلما ذكر له بعض الأساتذة حاجة الجامعة السورية إلى المختبرات والوسائل الفنية والأدوات العلمية أخذ المندوب يصطنع المعاذير ويعدد الصعوبات ، ويعلق أمر المساعدة على موافقة مجلس إدارة المؤسسة . ولكن الحديث بعد ذلك انتقل إلى موضوع التصوف الإسلامي ، فلم يتردد المندوب لحظة في قطع الوعود بالمساعدة إذا تأسس معهد للدراسات يعنى بهذا الموضوع الخطير [1] .

وقد ألف برنارد لويس أستاذ تاريخ الشرق الأوسط في جامعة لندن كتاباً في سنة ١٩٥٠ عنوانه « العرب في التاريخ » ، قرّظه أحد الأعلام من أساتذة التاريخ في جامعاتنا ، وأشاد بروح المؤلف العلمية المحايدة التي أنصفت العرب . والقارئ للكتاب يدهش كيف لم يتنبه مؤرخنا العربي

---

(١) انظر الفصل القيم الذي كتبه الدكتور كامل عياد بعنوان « مستقبل الثقافة في المجتمع العربي » في كتاب « العالم العربي » ج ٢ ، ص : ١٤٣ — ١٧٦ ، من مطبوعات الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية سنة ١٩٥٣ .

الكبير لما بثه المؤلف من سموم فى خلال تظاهره بالمنهج العلمى . لقد مهد المؤلف بين يدى كتابه بفصل استهله بالتساؤل عن « من هو العربى » ؟ ثم بحث هذا التساؤل من ناحية الدم والعنصر ، واللغة ، والدين ، والتاريخ ، والجنسية فى جوازات السفر فى أيامنا هذه ؛ وانتهى من كل ذلك إلى غايته الحقيقية وهى التشكيك فى وجود أمة موحدة تدعى الأمة العربية لها كيانها ومقوماتها . وهو ما لم يصرّح به تصريحاً ، وإنما اكتفى بالإيحاء والتلميح من خلال سرد يبدو فى ظاهره أنه بحث علمى مجرّد بل بحث علمى ينصف العرب ! ! (١)

ومستشرق آخر يعد رأساً بين المستشرقين ليومنا هذا ، وهو مشهور فيما يؤلف عن المسلمين والعرب بتحرى المنهج العلمى ، وأحاديثه كلها تفيض حباً للعرب والمسلمين ودفاعاً عنهم ، حتى ليكاد المرء يحس بأنه قد تجرّد للعلم وحده حقاً . هذا المستشرق ألف فى سنة ١٩٤٠ كتاباً عنوانه « العرب » وهى رسالة صغيرة ولكنها مركزة تركيزاً شديداً جمع فيها فى فصول متعاقبة الخلاف والفروق بين العرب من حيث : الأصل والجنس ، واللغة ، والدين ، والمذاهب ، والموقع الجغرافى ، ووضح ما فى نفس كل فريق على الآخر ، ونشأة هذه الخلافات ، فكأنما أراد أن يكون البحث مفتاحاً يضعه بين يدى قومه ليستطيعوا استخدامه فى استغلال هذه الخلافات والفروق وتوسيعها .

---

(١) انظر الفصل الأول من كتاب « أزمة الفكر العربى » للدكتور إسحق موسى الحسينى — دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٤ ففيه تعقيب على الكتاب المذكور .

ولا يتسع المجال لإيراد الأمثلة ، وإنما أردت أن أوضح أن هؤلاء المستشرقين لم يكونوا كلهم يواجهوننا بهجومهم السافر ، وإنما كان فريق منهم يتظاهر بالإنصاف والحيدة والتجرد للعلم وحده حتى يستطيع أن يغلف آراءه تغليفاً يجعلها مستساغة مقبولة لدينا ، بل يجعلنا نتبناها ونعتنقها ؛ هكذا خدعنا .

وقد نجحوا فى خطتهم ، واستطاعوا أن يتغلغلوا إلى أعماق جذورنا الأولى : جذور كيان أمتنا ومقوماتها ، ويزعزعوها . ولعلنا جميعاً نعانى فى نفوسنا وعقولنا من نتائج هذه الزعزعة ، فنحن جميعاً من ضحايا هذه التجارب العلمية المقصودة التى انتهت بنا جميعاً إلى الشك والقلق والاضطراب وانتهت بفريق منا إلى الجحود والإنكار والكفر بهذه الأمة : دينها وماضيها ولغتها وتراثها الأدبى . بل لقد صار من بقيت فى نفسه بقية من اعتزاز بهذه الأمة وإيمان بها — يخشى من إعلان اعتزازه والمجاهرة بإيمانه لئلا يوصف بالرجعية والجمود والتأخر .

(٥)

كانت المرحلة الأولى من عمل الاستعمار فى بلادنا تجزئة وطننا العربى الواحد إلى أوطان متعددة ذات حكومات ودول مختلفة لها نظم اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية تعليمية متباينة . ثم كانت المرحلة الثانية إشاعة الشك فى نفوسنا ونشر القلق فى عقولنا وزعزعة إيماننا بمقومات

وجود أمتنا وكيانها من دين ولغة وتراث فكرى وتاريخ مجيد . ثم انتقلوا إلى المرحلة الثالثة — أو لعلهم انتقلوا إلى المرحلة الثالثة فى أثناء عملهم فى المرحلتين الأوليين فسارت المراحل الثلاث جنباً إلى جنب :

مضوا يضعون مكان كل جذر أصيل يقتلعونه جذراً مجتلباً من تربتهم هم ، جذراً صناعياً ، فيه بعض عروق من مظاهر الحضارة والحياة الحديثة وغرسوه فى تربتنا ، وألقوا فى روعنا ألا حياة لنا إلا إذا استمددنا الغذاء والماء عن طريق هذه الجذور . فرضوا علينا مظاهر نظم حياتهم ، مظاهرها فقط : فى نظام الحكم ، وفى نظام التعليم ، وفى الحياة الاجتماعية . ودأبوا فى صمت وسكون وصبر يعملون عملاً مستمراً خفياً حتى جعلوا منا خلقاً مشوّها : نفكر بعقول مستوردة ، ونحسّ بنفوس مستعارة ، ونرى بأعين زجاجية ، ونسمع بآذان صناعية . . . أصبحنا شيئاً عجيباً ، عجزنا عن أن نكون أنفسنا ، وقصرنا عن أن نكون غيرنا ، وبقينا هكذا ضائعين حائرين مضطربين ، أشبه بذلك الغراب الذى أراد أن يحاكى مشية الطاووس فنسى مشيته وعجز عن محاكاة الطاووس . ما أكثر الغربان فينا !

وفى حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية : مضوا يقدمون لنا مشكلات مقصودة مفتعلة ، تصنع من أجلنا صناعة دقيقة ، على أيدى مهرة مختصين ، تستخدم فيها أحدث وسائل العلم بعد تجارب عدة ودراسات طويلة ، حتى إذا تمّ صنعها غلفت تغليفاً أنيقاً ، وربطت بأشرطة ملونة زاهية ، وصدرت إلينا بضاعة شائقة رائجة ، لا تكاد تصل أسواقنا حتى تتهافت عليها فى جد واهتمام يستغرقان جهدنا ويستنفدان طاقتنا ، فإذا ما أوشكنا أن نستهلكها ، وقاربت النفاد ، كان المهرة المختصون قد

أتموا صنع بضاعة جديدة — مشكلات جديدة — أحدث من الأولى ، وأتمّ تكويناً ، وأجمل طرازاً ، فلا يكادون يقذفون بها إلينا حتى نتهافت عليها من جديد .

إن أكثر مشكلاتنا التى نعانيها اليوم وتغتذى منا وتقتات علينا حتى لتكاد تستنزف دمنا ، ليست مشكلات أصيلة ، منبثقة عن مجتمعنا ، ناجمة من حاجاتنا الحقيقية ، وإنما هى مشكلات مفتعلة مزيفة ، تلقى إلينا إلقاء متعمداً . لنتلهى بها ، ونتوجه إليها ، وننصرف عن إدراك مشكلاتنا الحقيقية الأصيلة ، فتكون بذلك معوقات فى طريق سيرنا تستنفد جهدنا فى محاولة التغلب عليها ، وتستهلك طاقتنا فى تذليلها وتبديدها .

وقد بلغ هؤلاء الصناع المهرة منزلة رفيعة من البراعة والإتقان فى التمويه والخداع ، حتى إنهم أحياناً ليعرفون أن الأزمة قد بلغت مداها ، وأن غليان النفوس قد وصل إلى درجة لم يبق بعدها إلا الانفجار ، فسرعان ما يقدّمون لنا حلا لإحدى هذه المشكلات ، صنعوه هم أيضاً صناعة ، ودبروه تدبيراً ، بحيث يكون هذا الحل نفسه — بعد زمن — مشكلة جديدة . ثم يوحون إلينا بالحل إيحاء من بعيد وفى حذر شديد ، بحيث يوهموننا أننا نحن أصحاب الحل ، وأننا قد بذلنا جهداً كبيراً حتى حققنا انتصاراً ضخماً ، وكسبنا حقاً جديداً ، فتهدأ النفوس وتستكين ، بعد أن فرغت شحنتها ، وصرّفت امتلاءها ، ويكونون قد طبقوا علينا وسائل علمهم التجريبى حين يفرّغون شحنة كهربائية ، أو يفتحون صمام الأمن فى المرجل خشية ضغط البخار وانفجار الإناء .

(٦)

ولم يكتفوا بذلك ، لم يكتفوا بالمشكلات التى تنجم بالضرورة عن المرحلتين الأوليين من عملهم الدؤوب . فقد وجدوا فينا بقية من جذور عميقة ، ضاربة فى باطن الأرض ، لم يستطيعوا اقتلاعها من غير أن يسقط جذع الشجرة القائم على سطح الأرض ، وهم لا يريدون لهذا الجذع أن يسقط ، وإنما تقتضى مصلحتهم أن يبقى قائماً أجوف فى الفراغ ، ووجدوا فى هذه الجذور الباقية العميقة الضاربة فى باطن الأرض وفرة وفيرة من الخصب والحياة والنماء ، ستزكو وتمتد وتستطيل وتتكاثر فتعوضنا عما قلقلوه وعما اقتلعوه . ثم وجدوا أن ما أشاعوه فينا من شك وقلق واضطراب — على خطره — لم يستطع أن يهوى بنا جميعاً إلى الجحود والكفر والإنكار وراعهم ما أبصروا فينا من تفتق الوعى ، وانسكاب النور ، وتجمع قوى الوحدة والنضال . . فبدأوا عملهم فى المرحلة الرابعة ، جاؤوا بصخور صلدة ووضعوها تحت هذه الجذور الباقية ومن حولها لتوقف نموها ، وتعوق امتدادها ، وتشل حركتها ، وتعطل قوة الحياة فيها ، فكانت قضية فلسطين وخلق إسرائيل الصخرة الكبرى التى ألقوا بها . قضية فلسطين مولود غير طبيعى ، أى : أنها لم تكن نتاج حاجة حقيقية فى داخل فلسطين نفسها ، بل لم يكن وضع اليهود فى الداخل يتطلبها ، وإنما هى مؤامرة

مصنوعة مدبرة ، أتمّ الاستعمار صنعها وتدبيرها منذ نحو أربعين سنة — على أنها حلقة فى سلسلة لا تنفكّ إلا حين تدعو الحاجة إلى ذلك ، حين يحسّ الاستعمار أن مراحل عمله السابقة كلها لم تأت بالنتائج المنشودة ، ولذلك بقيت هذه الخطة فى مراحل الإعداد والتهيئة والتغيير والتعديل والتربص بالفرص إلى أن نفذت بعد وضعها بنحو ثلاثين سنة ، لتستهلك قوانا وتفرّغ طاقتنا وتستنفد ماء الحياة فينا .

ونجحوا إلى حين ، ثم أدركوا أن كل آثار مؤامراتهم ودسائسهم موقوتة ، وهالهم ما رأوا من النذر بانبعاث أمة العرب وانطلاقها ، وتنبهها لكل ما يراد بها ، وأصبحت خططهم عارية مكشوفة لا تنطلى على الوعى المتفتح ، فلم يجدوا مفراً من العدوان السافر الغادر ، فكان الهجوم الآثم الأخير .

إن قوة الصراع فينا لتزداد وتتجمع فى عناد وتصميم لأن إرادة الحياة فينا أقوى من وسائل الإفناء عليهم . ومن أجل هذه القوة الكامنة الهائلة فى إرادة الأمة العربية للبقاء والحياة — سيزيدون فى كل عام من صناعة المشكلات — المستترة والسافرة ، ويحوّرون بعض صورها ، ويبدلون مظاهرها وأساليبها . ولكن وعينا كفيل بفضح جميع دسائسهم وتفويت الفرص عليهم ، ووحدة نضالنا كفيلة بأن تكتب لنا النصر حتى تتسلم أمتنا شعلة الحضارة من جديد وتستأنف أداء رسالتها .